منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي

(خاطبا، قاضيا ، شاعرا) – القسم الثاني–

د.محمد الشريف قاهر *

شجاعة منذر الأدبية :

ومن مواقف البلوطي الصريحة الجريئة ما قاله لأبي جعفر بن النحاس في مجلسه بمصر، وكان يملي في أخبار الشعراء لطلابه، وهم يسجلون فلما وصل إلى شعر قيس المجنون وأملى:

خليلي هل بالشام عين حزينة *تبكي على نجد لعلي أعينها؟*

قد أسلمها الباكون إلا حمامة **مطوقة باتت و بات قريـــنها**

تجاوبها على خيزرانة *يكاد يدينها من الأرض لينها*

قال له القاضي البلوطي

يا أبا جعفر: ماذا– أعزك الله تعالى– باتا يصنعان؟ فقال له: وكيف تقول أنت يا أندلسي؟ فقلت: بانت بك و بان قرينها، فسكت، وما زال يستثقلني بعد ذلك حتى منعني كتاب العين، وكنت ذهبت إلى الاستنساخ من نسخته. فلما يئست منه، قيل لي: أين أنت عن ابن العباس بن ولاد؟ فقصدته فلقيت رجلا كامل العلم حسن المروءة، فسألته الكتاب، أخرجه

---

* عضو بالمجلس الإسلامي الأعلى – أستاذ جامعي

إلي، ثم ندم أبو جعفر لما بلغه إباحة أبي العباس الكتاب لي، وعاد إلى ما كنت أعرفه عنه.

ثقافة منذر ومذهبه:

كان منذر بن سعيد متفننا في ضروب العلوم، له مشاركة قوية فعالة فيما كان منتشرا في عصره، من فقه، وتفسير، ونحو، وأدب، وجدل، ومنطق، غير أن شهرته بالخطابة البليغة، ومعرفته بالجدل والمناقشة، قد غلبت عليه، فقد كان خطيبا بليغا، عالما بالجدل، حاذقا فيه، شديد العارضة حاضر الجواب، عتيده، ثابت الحجة، ذا إشارة عجيبة، ومنظر جميل وخلق حميد وتواضع لأهل الطلب، وانحطاط إليهم، وإقبال عليهم كما غلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي الاصبهاني المعروف بداود الظاهري[1]، فقد كان البلوطي يؤثر مذهبه، ويفضله على ما سواه، ويجمع كتبه، ويحتج لمقالته، ويأخذ به لنفسه وذويه، ولكنّه إذا جلس للقضاء والفصل بين المتخاصمين قضى بمذهب مالك ابن أنس، والذي عليه العمل بالأندلس، وحملت السلطة أهل البلاد عليه.

وكانت ولايته القضاء بقرطبة في شهر ربيع الآخر عام 339 هـ، ولبث قاضيا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر لدين الله إلى وفاته عام 350هـ ثم لابنه الحكم المنتصر إلى أن وافته منيته عقب ذي الحجة عام 355هـ فكانت ولايته لقضاء الجماعة ستة عشر عاما كاملة لم يحفظ

---

[1] *كان ناسكا زاهدا، متعصبا في أول أمره للشافعي ثم انتحل لنفسه مذهبا خاصا به ، جعل أصول الأحكام فيه ثلاثة : الكتاب و السنة و الإجماع و نفى القياس و الاجتهاد وأصبح له أنصار في بغداد و شيراز و ما والاها و وصل مذهبه إلى الأندلس ثم انقرض بعد الخمسمئة ولد بالكوفة عام 300 و توفي ببغداد عام 380هـ .*

عليه فيها جور في قضية، ولا قسم بغير سوية، ولا ميل إلى هوى وكانت له فراسة، وقدرة عجيبة في استخراج الحقوق لأهلها، والأخذ بيد المظلومين.

ونجد لمنذر شعرا مبثوثا هنا وهناك، في كتب الأدب والفقه والتاريخ. قال في الزهد ، والدعوة ،إلى الله وترك الدنيا وملذاتها الفانية:

شاعريته :

الموت حوض وكلنا نرد ... لم ينج مما يخافه أحـــد

فلا تكن مغرما برزق غد ... فلست تدري بما يجيء غد

وخذ من الدهر ما أتاك به ... ويسلم الروح منك والجسد

والخير والشر لا تذعه فما ... في الناس إلا التشنيع والحسد [1]

والحق أن ليس هناك جديد يذكر في هذه المقطوعة وغيرها من شعره الذي عثرنا عليه لحد الأن ولسنا ندري هل كل شعره على هذا المنوال؟ أو أن هناك ما يستدعي النظر، ويعجب الفكر، مما لم يصل إلينا لحد الساعة، وإننا نجد القدامى يصفونه بالشاعر المحسن والخطيب البليغ، ينقل المقري عن المطمح بأنه "كان غزير العلم كثير الأدب، متكلما بالحق، متبينا بالصدق، له كتب مؤلفة في السنة والقرآن والورع، والرد على أهل الأهواء والبدع **وكان خطيبا بليغا وشاعرا محسنا**"[2].

ومن شعره الوعظي الزهدي هذه المقطوعة التي تسير على منوال شعر أبي العتاهية ويحي بن حكم الجياني الشهير بالغزل [156- 250] وابن

---

[1] *انظر نفح الطيب للمقري 1-374*

[2] *المصدر السابق 1-375*

عبد ربه أحمد بن محمد [246- 328] وغيرهم من شعراء الزهد الذي سبقوه أو عاصروه.

كما تصابى وقد علاك المشيب وتعامى عمدا وأنت اللبيب؟

كيف تلهو وقد أتاك نذير أن سيأتي الحمام منك قريب؟

يا سفيها قد حان منك رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عصيب

إن للموت سكرة فارتقبها لا يداوي إذ أتتك طبيب

كم توانى حتى تصير رهينا ثم تأتيك دعوة فتجيب

بأمور المعاد أنت عليم فاعملن جاهدا له يا أريب

و تذكر يوما تحاسب فيه إن من يذكر فسوف ينيب

ليس من ساعة من الدهر إلا للمنايا بها عليك رقيب [1]

دعـــــابته:

وكان القاضي البلوطي على متانة دينه، وشدة تمسكه بالأخلاق الشريفة كثير الدعابة، منطلق البشر، حتى أنه ربما استراب بباطنه من لا يعرفه إذ شاهد استرساله، ولكنه إذا رام أحد أن يصيب من دينه، ثار ثورة الأسد الضاري.

أ- حدّث سعيد ابنه أي المنذر البلوطي فقال: قعدنا ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم مع أبينا للإفطار بداره البرانية، فإذا سائل يقول، أطعمونا من عشائكم أطعمكم الله من ثمار الجنة هذه الليلة ويكثر من ذلك فقال: القاضي: إن استجيب لهذا السائل فيكم، فليس يصبح منا واحد

ب- ويقال إن الخليفة الحكم قال له يوما: لقد بلغني انك لا تجتهد للأيتام، وأنك تقدم لهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم فقال نعم، وقال وكيف

---

[1] *المصدر السابق، 1-376*

تقدم مثل هؤلاء؟ قال لست أجد غيرهم، ولكن أحلني على اللؤلؤي وأبي إبراهيم إسحاق ومثل هؤلاء فإن أبوا أجبرتهم بالسوط والسجن، ثم لا تسمع إلا خيرا.

جـ - وحضر عند الحكم يوما في خلوة له في بستان الزهراء على بركة ماء طافحة، وسط روضة نافحة، في يوم شديد الوهج، وذلك إثر منصرفه من صلاة الجمعة، فشكا إلى الخليفة من وهج الحر، فأمره بخلع ثيابه.والتخفيف عن جسمه ففعل ولكنه لم يطف ذلك ما به من الحر الشديد، فقال له الخليفة، الصواب أن تنغمس في وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك، وليس معنا أحد إلا الحاجب جعفر الصقلبي، وهو منا ونحن منه، ولكنه استحيى من ذلك، وانقبض وقارا، فأمر الخليفة حاجبه جعفر بسبقه بالنزول في الصهريج ليسهل عليه الأمر فبادر جعفر لذلك وكان يحسن السباحة فجعل يحول يمينا وشمالا فلم يسع القاضي إلا إنفاذ أمر الخليفة، فقام وألقى بنفسه خلف جعفر، وبقي بمكانه لا يتحرك، وبدأ الحاجب يلقي عليه الماء ويهرب منه، فقال له الخليفة ما لك لا تساعد الحاجب في فعله ومن أجلك نزل، وبسببك تبذل، فقال له القاضي يا سيدي يا أمير المؤمنين الحاجب سلمه الله لا هوجل معه ، و أنا بهذا الهوجل الذي معي يعقلني و يمنعني من أجول معه بحاله، يقصد أن الحاجب خصي له لا هوجل معه، - والهوجل : الذكر- فاستفرغ الحكم ضحكا من نادرته ولطيف تعريفه لجعفر وخجل جعفر من قوله، وسبه الأشراف وخرجا من الماء وأناهما الخليفة جائزتين تليق بكل منهما.

وروى عنهما قاسم بن أحمد الجهني أنه ركب يوما لحيازة أرض محتبسة في ركب من وجوه من الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو إبراهيم واللؤلؤي ونظراؤهما قال فسرنا نقفوه وهو أمامنا وأمامه أمناؤه يحملون خرائطه وذووه عليهم السكينة والوقار وكانت القضاة يومئذ لا تراكب ولا تماشي فتعرّض له في بعض الطريق كلاب مع مستوحمة والكلاب تعلق هنها، وتدور حولها فوقف وصرف وجهه إلينا وقال: ترون يا أصحابنا ما أبر الكلاب بالهن الذي تلعقه وتكرمه ونحن لا نفعل ذلك ثم لوى عنان دابته وقد أضحكنا وبقينا متعجبين من هزله[1] .

وكانت عادة علماء الأندلس والمغرب قديما ،كثيرا ما يتراسلون شعرا ويكتب بعضهم بعضا بطاقة فيها مقطوعة من شعر فيجيبه المبعوث إليه بنفس الرواية، و الوزن ، و ربما العدد.

قال البلوطي كتبت إلى أبي علي البغدادي[2] أستعير منه كتابا من الغريب[3] فقلت:

بحق رئم مهفهف وصدغه المتعطف

إبعث إلي بجزء من الغريب المصنف.

فقضى حاجتي وأجابني بقوله:

وحق درّ تألف بفيك أي تألف

---

1 انظر المقري النفح ج2 ص16 و ما بعدها

2 أبو علي القالي و لد عام 688 و دخل بغداد عام 313 و بقي بها طالبا25 عاما ثم استدعي إلى الأندلس التي وصلها عام 331 و بقي بها إلى حين وفاته عام 356 و دفن بقرطبة

3 و هو كتاب في غريب الحديث لأبي عمر و إسحاق بن مراد الشيباني النحوي اللغوي الكوفي، نزيل بغداد و المتوفي عام 216هـ

لأبعثن بما قد حوى الغريب المصنف

ولو بعثت بنفسي إليك ما كنت أسرف

وكتب إليه بعض الأدباء بقوله:

مسألة جئتك مستفتيا عنها وأنت العالم المستشار

علام تحمر وجوه الظبا وأوجه العشاق فيها اصفرار؟

فأجابه القاضي بقوله:

أحمر وجه الظبي إذا لحظه سيف على العشاق فيه احورار

واصفر وجه الظبي لما نأى والشمس تبقي للمغيب اصفرار

رحم الله هذه الأرواح الطاهرة ما أخفها، و ما أكثر مرحها، وتعليلها، فقد كانوا أتقياء أنقياء يجدون في مواطن الجد ولا ينسون نصيبهم من المدنيا من المواطن المرح البريء.

العدالة في نظر القاضي البلوطي :

حيث قال: اعلم أن العدالة من أشدّ الأشياء تفاوتا وتباينا، ومتى حصلت ذلك عرفت حالة الشهود، لأن بين عدالة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم، وعدالة التابعين رضي الله عنهم بونا عظيما، وتباينا شديدا، وبين عدالة أهل زماننا وعدالة أولئك مثل ما بين السماء والأرض، وعدالة أهل ما هي عليه بعيدة التباين أي والأصل في هذا عندي والله الموفق، أن من كان الخير أغلب عليه من الشر، وكان متنزها من الكبائر، فواجب أن تعمل شهادته تقبل ما يعمل بها فإن الله تعالى قد أخذنا بنص الكتاب (**أن من ثقلت موازينه فهو في عيشة**

راضية[1]) وقال في موضع آخر (**فأولئك هم المفلحون**) [2]يشير إلى الآية والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، فمن ثقلت موازين حسناته بشيء لم يدخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته لم يدخل الجنة في زمرة الداخلين أولا، وهم أصحاب الأعراف فذلك عقوبة لهم إذ تخلفوا أن تزيد حسناتهم على سيئاتهم، فهذا حكم الله في عباده.

ونحن إنما كلفنا الحكم بالظاهر فمن ظهر لنا أن خيره أغلب عليه من شره حكمنا له بحكم الله في عباده، ولم نطلب له علم الباطن ولا كلفه محمد صلى الله عليه وسلّم، فقد ثبت عنه أنه قال: إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فاحكم له على نحو مما أسمع [3]، فأحكام الدنيا على ما ظهر، وأحكام الآخرة على ما بطن، لأن الله تعالى يعلم الظاهر والباطن، ونحن لا نعلم إلا الظاهر، ولأهل كل بلد قوم قد تراضى عليهم عامتهم، فبهم تنعقد مناكحهم وبيوعهم، وقد قدّموهم في مساجدهم وأعيادهم، فالواجب على من استقضى على موضع أن يعمل شهادة أمثالهم وفقهائهم، وأصحاب صلواتهم، وإلا ضاعت حقوق ضعيفهم وقويه، وبطلت أحكامه، ويجب عليه أن يسال إن استراب في بعضهم في الظاهر والباطن عنهم، فمن لم يثبت عنده عليه اشتهار في كبيرة، فهو على عدالة ظاهرة، حتى يثبت غير ذلك .

---

[1] سورة القارعة الآية 6-7

[2] سورة الأعراف الآية 8

[3] وتمام الحديث : أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئا ، فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار ، يأتي بها يوم القيامة. انظر سنن ابن ماجة الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني [ت: 275هـ -] 2: 777 رقم 2317 باب أقضية الحاكم لا تحل حراما ولا تحرم حلالا .

1 - أزهار الرياض في أخبار عياض: (1-5) خمسة أجزاء

للمقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت: 1041هـ - 1631 م)

حقق الأجزاء الثلاثة الأولى الأساتذة:

مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي

وحقق الجزء الرابع الأستاذان سعيد أحمد أعراب، محمد بن تاويت

وحقق الجزء الخامس: الأستاذان : د. عبد السلام الهراس ، سعيد أحمد أعراب

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: 1358هـ، 1939م القاهرة

وأعيد طبع الكتاب كاملا تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومتي المملكة المغربية وحكومة الإمارات العربية المتحدة.

الرباط : 1398هـ - 1978م.

(انظر، 2 : 272-280)

2- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين [1-13] ثلاثة عشر جزءا، الأربعة الأخيرة مستدركات.

لخير الدّين الزّرَكْلي [ت:1396هـ-1976م]

الطبعة الثالثة: 1389هـ-1969م.

مطبعة كراستاتومس و شركاه، بيروت.

(انظر ، 8 : 229)

3- البداية والنهاية ، (1-15) خمسة أجزاء في ثماني مجلدت

للحافظ ابن كثير أبي الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي [ت: 774هـ- 1373م]

الطبعة التاسعة :1414هـ - 1994م

مكتبة المعارف بيروت

(انظر، 2 : 472)

4- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس

للضبي أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة [ت: 599هـ- 1203م]

دار الكتاب العربي 1967.

مطابع سجل العرب، القاهرة (انظر : 465-466. ترجمة : 1357)

5-بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة (1-2) جزآن

للحافظ جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (ت: 911هـ 1505م)

تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم

الطبعة الأولى : 1384هـ - 1964م

مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه.

(انظر ، 2 : 301).

6- تاريخ علماء الأندلس:

لابن الفرضي أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ

(ت403هـ - 1013م)

الدار المصرية للترجمة والنشر 1966

(انظر 144-145، ترجمة 1454.)

7- تاريخ إسبانيا الإسلامية :

كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام، و ما يجر ذلك من شجون الكلام لابن الخطيب محمد بن عبد الله لسان الدين (ت : 776هـ - 1374م).

تحقيق : إليفي بروفنسال

الطبعة الثانية، 1956م ، دار المكشوف - لبنان – بيروت. (انظر : 39)

8- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس :

للحميدي ابي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح عبد الله الأزدي (ت : 488هـ - 1095م)

الدار المصرية للتأليف و الترجمة : 1966.

مطابع سجل العرب - القاهرة .

(انظر ، 348-349 ترجمة : 811)

9- سير أعلام النبلاء(1-25) خمسة و عشرون جزءا، الأخيران للفهارس

للإمام الذّهبي شمس الدّين محمد بن أحمد بن عثمان الحافظ [748هـ-1347م] - أشرف على التحقيق وتخريج الأحاديث شعيب الأرنؤوط و حقق الجزء السادس أكرم اليوشي

الطبعة الثانية :1404هـ-1984م. مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع – بيروت- (انظر ، 16 : 173-178 ترجمة : 127)

10- شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب [1-8] ثمانية أجزاء

لأبي الفلاح عبد الحسين بن العماد الحنبلي [ت:1089هـ-1679م]

المكتب التجاري للطباعة والنّشر والتوزيع-بروت-لبنان . (انظر ، 3، 17).

11- صفة جزيرة الأندلس :

منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت: 866هـ -1462م)

تحقيق إ. لافي بروقصال.

مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، 1937 م بالقاهرة.

(انظر : 140-142).

12- العبر في خبر من غبر [1-4] أربعة أجزاء

للحافظ الذهبي محمّد بن أحمد بن عثمان [748هـ- 1374م]

حققه : أبو هاجر محمّد السعيد بن سبيوني زغلول

دار الكتب العلمية-بيروت- لبنان. (انظر ، 2 : 96)

13- العقد الفريد (1-7) سبعة أجزاء

لابن عبد ربه أبي عمر أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري .

الطبعة الثانية: 1381 هـ - 1962 م

مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر

(انظر الأرجوزة، 4 : 500-527)

14- الكامل في التاريخ (1- 13 ثلاثة عشر جزءا - الأخير للفهاريس

لابن الأثير أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد ابن محمد الشيباني (ت: 630هـ 1232م)

دار صادر و دار بيروت للطباعة و النشر : 1386 هـ -1966م

(انظر ، 8 : 674-675)

15- كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا - تاريخ قضاة الأندلس -

للنباهي أبي الحسن علي بن عبد الله بن الحسن المالقي [ت: 792هـ - 1390م]

المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت - لبنان . (انظر : 66-77.)

16 - معجم الأدباء (1-20) عشرون جزء.

للحموي أبي الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، (ت : 626هـ - 1229م) . مطبعة دار المأمون - بمصر. (انظر : 19: 174).

17- معجم البلدان [1-5] خمسة أجزاء

للحموي، أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرّومي البغدادي

[ت:626هـ-1229م] دار صادر، دار بيروت للطباعة والنّشر

(انظر 1 : 492).

18- نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب [1-8]

ثمانية مجلدت، الأخير للفهارس

للمقري أحمد بن محمد التلمساني [ت:1040هـ - 1631م]

تحقيق: الدكتور إحسان عبّاس

دار صادر بيروت: 1388هـ-1968م

انظر: (368-376-570-576-).

19- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين [1-2] مجلدان

لإسماعيل باشا البغدادي

الطبعة:الثالثة : 1387هـ - 1974م

طبع وكالة المعارف – اسطنبول – 1955م .

أعادت الطبعه بالأوفست : المكتبة الإسلامية، والجعفري تبريزي-طهران:

1378-هـ - 1947م.

(انظر، 2 : 472)